

## النظم الامبراطورية ومفهوم الهيمنة

2007/03/06

تقول نظرية الهيمنة، تظهر بين الحين والآخر دولة عظيمة ذات نفوذ عالمي تحاول، ويكون من واجبها أن تحاول، الهيمنة على الغير من الدول، والعمل على إقامة نظام عالمي جديد تجلس على قمته، وذلك من أجل تنظيم العلاقات الدولية، والعمل على استتباب الأمن العالمي، وضمان استمرار النشاطات التجارية والتعاون بين دول وشعوب الأرض. ويقول المؤرخون أن أوروبا استطاعت بدءاً من القرن الخامس عشر مد نفوذها إلى مناطق مختلفة من العالم، إلا أنها لم تستطع السيطرة على كل البلاد التي كانت تتطلع إلي السيطرة عليها، وذلك لأن دولها الرئيسية لم تكن قد طورت الأدوات التكنولوجية المطلوبة لتحقيق أهدافها في حينه. لكن القرن الخامس عشر لم ينتهي حتى كان البحارة والرحالة الأوروبيون الأوائل قد زاروا معظم بقاع العالم، وتعرفوا على أوضاع شعوبها، ورصدوا خيرات القابلة للاستغلال.

وخلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، خاصة بعد استكشاف العالم الجديد والتعرف على خيرات، دخلت دول أوروبا الرئيسية حالة من التنافس الشديد، ازدادت حدته بعد دخول بريطانيا وفرنسة حلبة التنافس التجاري إلى جانب اسبانيا والبرتغال وهولندا. ولقد تطورت الأمور إلى وقوع عدة حروب بين تلك الدول، كان هدفها الرئيس السيطرة على البحار وطرق التجارة الدولية، خاصة تجارة التوابل ومصادر الذهب والفضة. وبالرغم من أن القوة العسكرية كانت أهم أدوات الهيمنة والتوسع على حساب الغير، إلا أن أوروبا قامت باستخدام البشر كأدوات استعمارية، حيث عملت على ملء الكثير من المناطق غير المأهولة بالسكان، وتلك التي كانت تتميز بصالء الكثافة السكانية بإعداد كبيرة من المستوطنين الذين أصبحوا امتداداً لشعوبها وثقافتها الأوروبية، وأدوات أساسية للهيمنة على الغير واستغلالهم.

وبينما ادعت دول أوروبا الاستعمارية أن هدفها هو تحضير الشعوب غير المتحضرة ونشر المسيحية بينهم، كان الهدف المبطن هو استغلال خيرات البلاد المستعمرة واستعباد شعوبها. إذ أن مجرد اعتبار شعوب البلاد المستعمرة شعوباً غير متحضرة كان في حد ذاته قراراً بأن تلك الشعوب لا تستحق من الحرية ما تستحقه الشعوب الأوروبية، ولا تملك من العقلانية القدر المطلوب لإدارة شؤونها واستغلال مواردها وثرواتها بنفسها. وبينما ركزت اسبانيا على نشر الديانة الكاثوليكية ونهب مناجم الذهب والفضة التي اكتشفتها في أمريكا اللاتينية، ركزت البرتغال على السيطرة على طرق الملاحة والتكتم على أسرار وتكنولوجيا الإبحار عبر المحيطات. أما هولندا فقد ركزت على التجارة، خاصة تجارة التوابل، وإقامة الشركات الاستثمارية والتجارية العملاقة، وتأسيس بيوت المال لتمويل عمليات التجارة الدولية والاستثمار في البلاد المستعمرة. وبعد أن قامت هولندا ببناء ميناء أمستردام الجديد أصبح في مقدورها احتكار معظم التجارة القادمة من المستعمرات إلى أوروبا، حتى مع المستعمرات التي كانت تسيطر عليها بريطانيا مثل فرجينيا. وهذا مكن هولندا، على الرغم من صغر سكانها ومساحتها، من تأسيس أول نظام عالمي والسيطرة عليه وتسخيرها لخدمة مآربها، وهو نظام قام على أساس التجارة والمال ومن اجلهما.

إلا أن الهيمنة الهولندية لم تدم طويلاً ولم تكن في الحقيقة هيمنة كاملة أو شاملة، وذلك لأن هولندا لم تملك ما يكفي من القوة العسكرية أو البوارج البحرية لحماية مصالحها والدفاع عن مستعمراتها. وحين فشلت محاولات التعاون بين هولندا وبريطانيا في حصول الأخيرة على حصة الأسد من التجارة الدولية، قامت بريطانيا بشن حرب على هولندا والاستيلاء على بعض مستعمراتها. ولم تمض عقود قليلة حتى أسست بريطانيا شركات استثمارية وتجارية كبيرة منافسة، وأقامت بيوتاً مالية ومؤسسات ائتمانية على درجة عالية من الكفاءة، إضافة إلى بناء أكبر أسطول عسكري وتجاري في العالم. ولقد تسبب ذلك في تراجع مكانة هولندا الدولية بدءاً من منتصف القرن الثامن عشر، حيث قامت بريطانيا بأخذ مكانتها وتأسيس إمبراطورية شاسعة الأطراف دامت أكثر من 150 عاماً. ولم تبدأ الإمبراطورية البريطانية في التراجع الحقيقي إلا بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى وبروز الولايات المتحدة الأمريكية كلاعب عالمي رئيسي ذا قوة عسكرية واقتصادية كبيرة ومتنامية.

قامت بريطانيا حيث حلت باستخدام سياسة "فرق تسد" للسيطرة على الشعوب التي استعمرتها، واتجهت إلى استخدام كل الوسائل المتاحة لتحقيق أهدافها التجارية والسياسية. ولقد اعتمدت في ذلك على ما كانت قد طورته من تكنولوجيا السلاح، وما ملكته من حنكة سياسية وإرادة قوية على

إتباع طرق غير أخلاقية للهيمنة على الشعوب المغلوبة على أمرها. وأهم مثال يمكن أن نذكره في هذا المجال، نشر تعاطي الأفيون في الصين على أكبر نطاق ممكن، والعمل على تدمير صناعة القطن في الهند من أجل احتكار شركاتها لتلك الصناعة، وتطوير زراعة القطن في مصر حين أصبح من الصعب التحكم في عمليات إنتاجه وتصديره من أمريكا. ومن خلال السيطرة على الجزء الأكبر من العالم، والذي جعل الشمس لا تغيب عن الإمبراطورية البريطانية، استطاعت بريطانيا إقامة نظام عالمي جديد جلست على قمته وسخرته لخدمة أهدافها وحماية مصالحها، وهذا مكنها من فرض إرادتها على الغير، ونهب خيرات بلاد وشعوب بلا عدد، وتمزيق شعوب مسالمة إلى قبائل متحاربة كما فعلت في إفريقيا، وتجزئة بلاد وأمم إلى دويلات صغيرة متنافسة فيما بينها، وفي حالة مستمرة للحماية الخارجية كما فعلت في البلاد العربية.

ومع تراجع الإمبراطورية البريطانية بدأت الإمبراطورية الأمريكية في التوسع لتحل محل سابقتها، وهي إمبراطورية لم يعترف قاداتها ومثقفوها بكونها إمبراطورية إلا بعد أن تسلّم الرئيس بوش مقاليد الحكم قبل 6 سنوات. وتقول نظرية الهيمنة إن تراجع مكانة الدولة المهيمنة على النظام العالمي يبدأ في الداخل حين يضعف اقتصادها، وتخبو إرادة الغزو والهيمنة لدى النخبة المسيطرة على الحكم فيها، وتضعف ثقة الغير في مصداقيتها وقدراتها العسكرية. فهل دخلت الإمبراطورية الأمريكية مرحلة التراجع؟ وكيف يمكن أن يكون عليه الحال من بعدها؟ سؤالان هامان سنحاول مناقشتهما في مقالات قادمة.